القسم الثاني (السياسي)

الحكم على أساس ديني.

الفصل الأول

دين محلي أم فهم ضيق؟

obeikandl.com

يدعي كل صاحب دين(١) أن دينه عالمي وقد جاء للناس جميعاً، (٢) وعن طريقه فقط يمكن الخلاص يوم القيامة(الدينونة)(٣)، حتى أصحاب الدين الوضعي يرون أن دينهم عالمي وباقٍ وخالد، وللحق فإن بقاء الكثير من الأديان عبر عشرات القرون بذات الصيغة والصبغة التي نشأ عليها ولم تعتوره إلا القليل من التعديلات أو الشروح والإضافات ليبعث العقل على التفكير في أن بعض تلك الأديان يخاطب الفطرة السليمة للإنسان، ولكون السفر كله يتحدث عن الدين الإسلامي خاصة، فسنقصر الحديث في البحث على الإسلام، وقد قيل إنه دين جاء للعرب فقط، وغالى البعض فقال إنه دين لقريش فحسب، وقد نجد اليوم من لا يؤمن إيمانًا كاملاً بضرورة العبادات الدينية الإسلامية وخاصة عبادة الحج(٤)، ومازال الأمر محل شك لدى البعض، وينُظر لبعض آي القرآن بوصفها تحدد المهمة الرئيسة لمحمد في إنذار قومه وعشيرته من بني هاشم، ثم لما توسع كثيرا أُطلق له العنان في إنذار قريش كلها، ولما كان المدُ أكبر أُذن له بإنذار العرب كلهم، ونرى من أحداث السيرة أن الرسول كان أكثر تعاطفاً مع العرب عن غيرهم من بقية الأعداء. (٥) ونستطيع الآن أن نحشد الآيات التي تؤكد عالمية الدين الإسلامي إزاء الآيات التي تشير إلى المحلية والقومية العربية:

فمن الآيات التي تدل على العالمية:
قوله تعالى: "وَمَن يَّبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُّقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ "(آل عمران:٨٥) وهي آية مدنية وسنتعرض لمناقشتها في الحديث عن الوراثة النبوية.

قوله تعالى:"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ

١- هناك نظريات كثيرة ومتعددة تبحث الحكم الثيوقراطي ، وأنه كان السبيل للقضاء على الخلافة الأموية – مثلاً – عند الدعوة العباسية، وإقامة الخلافة الفاطمية على أساس ديني، فالحديث عن هذا كله سيكون محله سفرنا (الحروب الإبراهيمية) وقد أشار إلى الكثير من هذا الأستاذ الدكتور : إمام عبد الفتاح إمام ، في كتابه الأشهر: (الطاغية) طبعة عالم المعرفة بالكويت) وهناك عشرات الكتب غيره تبحث تلك القضية وإنما أنا هنا أمر مرورا سريعاً .

٢- خلاف اليهود الذين لا يرون ذلك، فلهم إله وحدهم هو يهوه، هم منْ عرفوه واهتدوا إليه ولا يسمحون لأحد غيرهم بمعرفته ، وأن يشاركهم رحمته وجنته ، ولا يبشرون بدينهم ويرغبون عن الناس به، وهذا شيء يستحق الحديث عنه في سفر كامل.(وهذا من باب إغلاق الأعين لئلا ترى النور)

٣- تلك هي النقطة الأساسية في الخلافات الدينية ، فالكل يؤمن بخلاص مختلف وإن اتفقوا جميعاً في الكثير من أمور الدين كتوحيد الله (الديانات السماوية) وإنما محل الخُلف هو يوم القيامة فاليهودي يرى أن يهوه لن يعذبه وإن عذبه فسيكون أياما معدودة كما حكى القرآن في المشهور(البقرة:٨٠)، والمسيحي يرى أن المسيح سيخلصه، أما المسلم فيرى أن مفتاح الجنة قوله:لا إله إلا الله ، محمد رسول الله وفعل الخيرات فحسب كما يقول القرآن الكريم منهج الإسلام وحجته.

٤- في تاريخ الفرق والمذاهب فرق لا تؤمن ببعض سور القرآن وآياته ،ومن هؤلاء من رأى أن الآيات التي حملت على خصوم النبي (مثل أبي لهب) وتولتهم بالطعن لا يعقل أن تكون من القرآن ،لأنها لا تتمشى مع قوله تعالى :" بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ "(البروج:٢١-٢٢) بل غالت إحدى فرق الخوارج غلواً معيباً أدى بها إلى الطعن في سلامة بعض سور القرآن ،فالميمونية أنكرت أن تكون سورة يوسف من القرآن ! وزعم العجاردة أنها قصة عشق فكيف يجوز في حكم العقل أن تكون من سور الكتاب المنزل.توفيق الطويل :أسس الفلسفة ، دار النهضة المصرية ، ط٢، ١٩٥٠، صـ ٣٨٩.وهناك فوق ذلك الكثير، مما يؤكد أنهم اتبعوا أهواءهم لا دينهم.

٥- تخبرنا السيرة المؤكدة أن الرسول لما ضاقت به مكة بعد عام الحزن(لوفاة أبي طالب وخديجة) رحل إلى الطائف ولم يرحل إلى بلاد أخرى كالحبشة أو الشام حيث إقرار الدولة وربما يتسع نطاق الدين ، ثم لما كان من أهل الطائف الجحود والنكران والإهانة فإنه رفض مجرد الدعاء عليهم ، ولما كان له أسرى في بدر رفض قتلهم وافتداهم وتأخر نزول القرآن في ذلك حتى انتهى من الفداء، ولما فتح مكة قال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء، ثم عفا بشفاعة البعض عمن كان أهدر دماءهم من القرشيين، ولكنه لما كان في المدينة أذن باغتيال كعب بن الأشرف اليهودي ولم يرحم بني النضير ولا بني قينقاع وقد أباد جميع مقاتلي ورجال بني قريظة وظل يتتبع اليهود حتى أجلاهم من شبه الجزيرة العربية(أول الحشر) وفعل عمر بن الخطاب(آخر الحشر) ما يشي كل هذا بأن الدعوة غرضها العرب سواء أسلموا طوعا أو أشركوا حتى حين.

يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ "(الأعراف:١٥٧-١٥٨)

قوله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحمَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء:١٠٧)

وقوله تعالى: " تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا "(الفرقان:١)

وقوله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (سبأ :٢٨)

وقوله تعالى: " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (الأعراف:١٥٨)

وقوله تعالى: " قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ" (الأنعام:١٩)

وقوله تعالى: " وهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (الأنعام :٩٢)

وقوله تعالى: " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومَن حَوْلَهَا وتُنْذِرَ يَومَ الجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * ولَو شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ولَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ والظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِن وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ "(الشورى:٧-٨)

وقوله تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحمَةً لِلْعَالَمِينَ "(الأنبياء:١٠٧)

نلاحظ أن أغلب تلك السور مكي التنزيل، وأن الحديث عن أم القرى جاء مرتين، والمقصود بها مكة (حيث قريش) ولكنه يتحدث عمن حولها، ولا يحد من حولها حدود، فتتسع شرقاً وغرباً إلى ما لا نهاية له، وقد رأينا العشرات من الكُتَّاب المسلمين يبحث قضية توسط الجزيرة العربية للعالم ما يسِّهل انتشار الدين منها إلى بقية الأرجاء المعمورة آنذاك(حيث العالم القديم: أسيا - أفريقيا – أوروبا)

وتلك الآيات يساندها واقع الحال من انتشار الإسلام في شتى الربوع، وقد وصل إلى الصين وأوروبا، وأفريقيا، ولم يعد هناك اليوم من لم يسمع بالإسلام.

ومن الفضل ما شهد به الأعداء، وفي إطار هذا الصدد أستشهد بقول الكاتب الأشهر برنارد لويس، حيث يقول: " لقد ظل عالم الإسلام قروناً عديدة في طليعة الحضارة الإنسانية والإنجازات البشرية، بل لقد ظل الإسلام نفسه مرادفاً في نظر المسلمين للحضارة، ولم يكن خارج حدوده إلا الهمجية والكفر... ... وكان المسلمون على وعي – بطبيعة الحال- بوجود مجتمعات أخرى تتمتع بقدر ما من الحضارة على وجه الأرض، في الصين وفي الهند وفي ديار المسيحية، ولكن الصين كانت بعيدة عنهم ولا يعرفون الكثير عنها، وكانوا بسبيلهم إلى إخضاع الهند وتحويلها إلى الدين الإسلامي، وأما العالم المسيحي فكانت له أهميته الخاصة لأنه كان يمثل المنافسة الجادة الوحيدة للإسلام من حيث إن المسيحية عقيدة عالمية وقوة عالمية، ولكن تلك العقيدة كان قد حلّ محلها في نظر المسلمين- التنزيل الإسلامي النهائي. وكانت تلك القوة تتغلب – بصورة مطردة – طاقة الإسلام التي تسترشد بالهدي الإلهي."(١) وتلك رؤية الغربيين المحدثين لواقع الدين الإسلامي، وقال: إنه التنزيل الإلهي النهائي، تصديقاً للقول بأن الإسلام هو خاتم الرسالات السماوية. ثم يستطرد برنارد قائلاً: "وعندما وصلت القوة الإسلامية إلى ذروتها، لم تكن هناك سوى حضارة واحدة تضارعها في مستوى الإنجاز وامتيازه وتنوعه، وتلك - بطبيعة الحال - هي الصين. ولكن الحضارة الصينية ظلت في جوهرها حضارة محلية؛ إذ اقتصرت على إقليم واحد هو شرق آسيا، وعلى جماعة عرقية واحدة. وقد صدَّرتها الصين في حدود معينة، ولكن التصدير اقتصر على الشعوب المجاورة وذات القرابة، على عكس الإسلام الذي أنشأ حضارة عالمية، ومتعددة الأجناس والأعراق، ذات طابع دولي، وربما استطعنا وصفها بأنها" عابرة للقارات".

كان الإسلام يمثل أعظم قوة عسكرية على وجه الأرض، إذ كانت جيوشه تقوم في نفس الوقت بمهاجمة أوروبا وأفريقيا، والهند والصين، وكان القوة الاقتصادية الأولى في العالم.

وفجأة تغيرت العلاقة، إذ بدأ الأوربيون، حتى قبل عصرالنهضة، يحرزون تقدماً ملموساً في فنون الحضارة وبقدوم ما يسمى بالمعرفة الجديدة، شرعوا يتقدمون بسرعة لاهثة، فسبقوا التراث العلمي والتكنولوجي، ثم الثقافي، للعالم الإسلامي بأشواط طويلة.

ولم يكن المسلمون يدركون ذلك بل ظلوا ردحاً طويلاً من الزمن غافلين عنه، فتوقفت حركة الترجمة الكبرى التي كانت قد أطلعت المسلمين وغيرهم من القراء العرب على الكثير من الكتب اليونانية والفارسية والسريانية.

كانت ديار الإسلام لا تكاد تدري شيئاً عن النهضة الأوربية وحركة الإصلاح الديني، والثورة

١- برنارد لويس: أين الخطأ ،الهيئة المصرية العامة للكتب(مكتبة الأسرة) ترجمة: د. محمد عناني، تقديم د. رءوف عباس.صـ٥ ،وما بعدها.

التكنولوجية؛ إذ كان المسلمون لا يزالون يميلون إلى الاستخفاف بالقاطنين وراء حدودهم الغربية باعتبارهم من البرابرة الذين يعيشون في الظلام، وباعتبارهم أدنى حتى من كفار آسيا في الشرق الذين أحرزوا درجة أعلى من التقدم، إذ كان لديهم من المهارات والمبتكرات ما يمكن الإفادة منه، ولم يكن لدى الأوربيين شيء من هذا، ولقد كان هذا الحكم يتمتع بدرجة معقولة من الصحة وقتاً طويلاً، لكنه عفي عليه الزمن فأصبح ينطوي على خطر داهم.(١)

ويتحدث برنارد عن الصراعات الداخلية في العالم الإسلامي فيقول: " كان السلطان العثماني مثل قرينه ومنافسه امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة، لا يعدم المنافسين السياسيين والتحديات الطائفية داخل عالمه الديني الخاص، وكان السلطان أشد نجاحاً من صاحبه في التصدي لهذه التحديات. ففي نهاية القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر، كان للعثمانيين اثنان من الجيران المسلمين، أعرقهما السطنة المملوكية في مصر، وعاصمتها القاهرة، وهي التي كانت تحكم كل بلاد الشام وفلسطين، وأهم منها الأماكن المقدسة في الإسلام في غربي بلاد العرب، وكان الجار الآخر في بلاد فارس، التي توحدت من جديد في ظل أسرة حاكمة جديدة، وروح نضال جديدة، وكان مؤسس الأسرة الشاه إسماعيل الصفوي (الذي حكم من ١٥١١- ١٥٢٤) شيعياً يتكلم التركية ومن أذربيجان ،وقد أخضع جميع أراضي إيران لحكم رجل واحد لأول مرة منذ الفتح العربي في القرن السابع ولما كان زعيماً دينياً إلى جانب كونه – وربما إلى درجة أكبر- زعيماً سياسياً وقائداً عسكرياً، فلقد جعل المذهب الشيعي الدين الرسمي للدولة، وهكذا فصل بين مملكة إيران الإسلامية فصلاً حاسماً وبين بقية جيرانها المسلمين على الجانبين، أي في الشرق حيث وسط آسيا والهند، وفي الغرب حيث الإمبراطورية العثمانية."(٢)

ولعل الصراعات داخل الحضارة الإسلامية والرغبة في السيطرة والحكم هي التي أدت إلى انحسار الإسلام عن أن يصل إلى العالم المعمور برمته، ومن الأدلة الدامغة على صدق ذلك ما أكده بوزبق سفير الامبراطورية الرومانية المقدسة في استامبول الذي ذهب إلى القول بأن التهديد الفارسي وحده هو الذي أنقذ أوروبا من الفتح التركي الوشيك لها، فكتب يقول: " إننا نرى على الجانب التركي موارد امبراطورية جبارة، وقوة لا يشوبها وهن ويقظة وانتباهاً، وأما على جانبنا فنجد فقر العامة وترف الخاصة، وقوة مثلومة وروحاً منكسرة، ونقصاً في قوة التحمل والتدريب، فالجنود عاصون،

١- المصدر السابق، بتصرف يسير، ونلحظ أن المؤلف طوال الكتاب يتحدث عن الإسلام والمسلمين باعتبارهم الدولة العثمانية، واختصر الإسلام والحضارة الإسلامية في دولة الأتراك التي كانت تهدد أوروبا طوال القرون الوسطى، ولم يدرك أن العثمانيين لما فرضوا سيطرتهم على دولة المماليك(مصر – الشام – الحجاز) قد أغلقوا عليهم كل منافذ العلم حتى فوجئت مصر بحملة نابليون بونابرت على مصر والشام عام ١٧٩٨م، وظهر وقتها مقدار التخلف العربي الإسلامي ، وكان لجهود علماء الحملة الفرنسية أكبر الأثر في النهضة التي أحدثها محمد علي بالاتصال بالغرب المتقدم ، ومن هنا يمكنني القول إن الخلافة العثمانية كانت ظلاماً في مكان ونورا في مكان آخر، ولكن سبب التعتيم على الدول العربية هو ألا تجد فرصة للتحرر ، فالعربي لن يدين بالسلطة لجنس وعرق غريب ولم يكن أصل الإسلام ولا منبته ولا يتحدث بلغته ، ولذا وجب إخضاعهم كالأسرى، والحديث في هذا يطول، والخلاصة أن الخلافة العثمانية كانت تسعى لتثبيت عرشها وبسط نفوذها في العالم باعتبارها دولة عظمى لا راعية العدالة والمساواة في الأقاليم التي تخضع لها.

٢- المصدر السابق،صـ ١١وما بعدها بتصرف يسير للغاية، وأسوق هذه الأقوال كلها للتدليل على أن الدين الإسلامي لم يكن ديناً فقط، بل كان ديناً ودولة وحضارة أسهمت بوفرة في الإرث الثقافي الإنساني.

والضباط مقترون، وانتشر الانحلال والتهور والسُكر والتبذل، وأسوأ ما في الأمر أن العدو قد اعتاد النصر واعتدنا الهزيمة، هل لنا أن نشك فيما ستكون النتيجة؟ إن بلاد فارس وحدها هي التي تتدخل لصالحنا، إذ إن العدو وهو يسرع بالهجوم، لابد أن يحذر دائماً، من الخطر المتربص بصفوفه الخلفية، ولكن بلاد فارس تؤخر من وقوع المصير الذي ينتظرنا ولا تستطيع إنقاذنا، فبعد أن يسوي الأتراك أمورهم مع بلاد فارس سوف ينقضون على نحورنا".(١) وهذا الكلام معناه أن الحروب الإسلامية الإسلامية أخرت الانتشار الإسلامي في غير ربوع الإسلام.

ولما وقعت الخسائر للشاه إسماعيل الصفوي عام ١٥٢٣ أرسل خطاباً إلى الامبراطور شارل الخامس، يُعرب فيه عن دهشته من أن الدول الأوربية يحارب بعضها بعضًا بدلاً من ضم الصفوف في وجه العثمانيين، ولم تلق تلك المناشدة أذناً صاغية، ولم يرسل الامبراطور رداً على الشاه حتى عام ١٥٢٩، وكان الشاه قد توفي قبل ذلك بخمس سنوات.

يصف الدكتور رءوف عباس الخلافة العثمانية قائلاً: " لقد كانت الإمبراطورية العثمانية كياناً سياسياً إقطاعياً فضفاضاً، لم تتحول قاعدتها في الأناضول وعلى ضفاف البوسفور إلى "قلب" يضبط حركة الولايات المختلفة باعتبارها "أطرافاً" بل كانت السلطة المركزية للدولة لا تكاد تُحسُ في الولايات، اللهم إلا عندما تقوم حركة عصيان من جانب أحد الولاة أو القوى المحلية، عندئذ كانت الدولة تضمن استمرار سيطرتها على الولاية عن طريق تأليب مراكز القوى ضد بعضها البعض، ثم تتدخل عسكرياً في نهاية المطاف لوضع الأمور في نصابها، وبحكم طبيعة السلطة الإقطاعية كانت الدولة لا تهتم إلا بجباية الضرائب، وحفظ الأمن، وإقرار العدل، ولا تحمل على عاتقها عبء الخدمات المختلفة: تعليمية، أو صحية، أو حتى عمرانية أو غيرها، فتركتها للرعية تدبرها بوسائلها الخاصة".(٢)

كان حال الفرق والمذاهب الإسلامية المتطاحنة يتألف من ثلاثة لاءات: لا اعتراف، لا تعايش، لا تعامل.

ومن هنا فالقول الأكيد أنه ولو كان الإسلام دعوة عالمية اتخذت خطوطاً عريضة للعالمية، فبدأ الرسول بعشيرته الأقربين، ثم قومه، ثم أهله، ثم قوميته، ثم حمل أتباعه الراية ونشروا الإسلام في بلاد كثيرة إما بالسيف أو بالدعوة (عن طريق الرحلات والتجارة وغيرهما) فإن الخلافات المذهبية

١- المصدر السابق ، صـ ١٥.
٢- المصدر السابق، صـ ٢١، وما بعدها.

والسياسية هي التي قوقعت الإسلام مرة أخرى في مذاهب – لليوم – يُكفِّر بعضها البعض الآخر، ويستعدون على بعضهم بالأجنبي.

دعاوى المحلية:

هناك العديد من الدعاوى التي تُطرح للحديث عن محلية الدين الإسلامي، وأنه دين خاص بالعرب وحدهم دون بقية العالم، ومن أهم تلك الدعاوي:

اللغة: قد ناقش الشيخ عطية صقر موضوع اللغة العربية ومحلية أو عالمية الرسالة الإسلامية حيث قال: " هناك شبهة على عالمية الدين الإسلامي، وهي نزول القرآن باللغة العربية، وكما قال تعالى: " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(يوسف: ٢) وقوله تعالى: " وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ والَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وهُوَ عَلَيْهِم عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ" (فصلت:٤٤) وقوله تعالى: " نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ *بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ "(الشعراء:١٩٣-١٩٥) وقوله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَّشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَّشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ"(إبراهيم: ٤)([1])

يستطرد الشيخ صقر قائلاً: " وجمهور الناس لا يعرفون معاني الكتب الإلهية: التوراة والإنجيل والقرآن، إلا بمن يبينها ويفسرها لهم، وإن كانوا يعرفون اللغة.. ثم يقول: وقد روّج لهذه الشبهة اليهود والنصارى، ولكن كيف يتملص اليهود والنصارى من العرب من الإيمان بمحمد لنزول القرآن بالعربية، وهم أنفسهم يعرفون بحكم إقامتهم أو اتصالهم بعيد المدى. على أنهم هم قبلوا دين موسى وعيسى، مع أن الكتاب الذي نزل على كل منهما لم يكن باللغة العربية، ومع ذلك آمنوا به، إما بتعليم لغة التوراة والإنجيل، وإما بنقلها بطريق الترجمة."([2])

والواضح أن رغبة اليهود والنصارى في خروج نبي آخر الزمان إنما ليكون من عرقيتهم وإثنيتهم، وأن العرب قد ملكوا الرسالة وتحدثوا عنها للأمم باعتبارهم مالكوها، وتسلطوا بها على الأمم بسبب ذلك، ولايزالون لليوم يفعلون ذلك، ويؤكدون أنهم بيضة الدين، باعتبار الارتباط الوثيق بين اللغة

١- وسنجد أن الله تعالى يصف تنزيل القرآن بلسان النبي أي بلغته ، قال تعالى:" فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًا"(مريم :٩٧) وقوله تعالى:" فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (الدخان:٥٨) وواضح التعليل من سياق الآيتين ، فيسره الله بلسان النبي بسبب أن يبشر به المتقين من قومه وينذر المعاندين منهم.حسب ظاهر الآيات.(محلي)

٢-عطية صقر: الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط٣، ٢٠١٣، صـ ٢٧.

العربية والدين الإسلامي.

هل القرآن العربي يُخطاب به أناس غير المتكلمين بالعربية؟

ناقش عباس محمود العقاد تلك القضية في كتابه: ما يُقال عن الإسلام، وكان مما قال في ذلك: " قال سوندرز : " إن الأوروبيين المتخصصين للإسلاميات ينقسمون انقسامًا شديداً في هذه المسألة (المحلية والعالمية).

فإن موير يرى أن الدعوة من البداية إلى النهاية دعوة للعرب وحدهم ولم يدع بها أحد غيرهم..

ولكن نولدكه وجولدزيهر وأرنولد وكلهم ثقات – يقولون إن محمداً عليه السلام، أراد بدينه منذ أوائل الدعوة أن يكون ديناً عالمياً، ولم يرد به أن يكون مجرد عقيدة وطنية محلية، ونقول(العقاد):إنه لو ثبت أنه كتب إلى هرقل وملك الفرس وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى الإسلام لانتفى الشك بالواقع، ولكن آراء الباحثين – مع الأسف – لا تميل إلى قبول هذه الأخبار، ومونتجمري وات يقول إن هذه القصة لا يمكن أن تقبل على حسب هذه الروايات".

ثم يرد العقاد فيقول:" ولسنا نرى دليلاً على التحرز- ولا على الجد - في استناد الكاتب إلى نزول القرآن باللغة العربية لتعزيز حجته على تخصيص الإسلام بمن يتكلمون اللغة العربية؛ إذ كيف كان يريد أن تكون الدعوة إن كانت عالمية إنسانية ولم تكن مقصورة على المتكلمين بلغة الرسول؟ إنه يمنع بذلك أن توجد في العالم دعوة عالمية إنسانية على الإطلاق أو يفترض فيمن كان يرسل بهذه الدعوة أن ينطق بألسنة الناس أجمعين."([1]).وأرى أن تلك الحجة وجيهة؛ ولأنه لا توجد لغة يفهمها الناس جميعاً؛ فإن تلك الحجة للمحلية تسقط متهاوية متخاذلة.

فالنص على أن القرآن نزل بهذه اللغة لينذر به قومه، وهي لغة قومه، كل ذلك يثير تساؤلاً: إذا كان القرآن نزل وبلغ بهذه اللغة، ألا يدل ذلك على أن الرسالة هي لقومه العرب فقط؛ لأنهم هم الذين يستطيعون أن يفهموا القرآن ويقوموا بتكاليفه؟

وكيف يكلف غيرهم بالإسلام مع أن كتابه لا يُفهم بلغة غير العربي، ولا يمكن التعبد به ولا حفظه مع ذلك، وليس من عدل الله أن يطالب أمة يوم القيامة باتباع رسول لم يأت إليهم، ولا وقفوا على

١-عباس محمود العقاد، ما يُقال عن الإسلام ، جـ2 مجمع البحوث الإسلامية،1432هـ جـ2، صـ 25،وما بعدها.

كتاب بلسانهم ؟

ويُجاب على ذلك بأن جميع الآيات تدل على مجرد وصف القرآن بأنه عربي، وليس فيها ما يدل على قصر توجيهه على العرب، بل ذكرت أن الحكمة في كونه عربياً تيسير فهمه على الناس، وتعقل ما فيه وإمكان تذكره وتدبره، ومعنى هذا أن اللغة العربية لون ثقافي فقط، لا شأن له في العصبية والعنصرية(١)، وقد بلغ النبي الرسالة للعرب بلغتهم وهي لغة القرآن، وإلى جانب كون اللغة العربية لغة النبي ولغة بيئته التي نشأ فيها وابتدأ منها دعوته، فإن لها من الميزات على سائر اللغات ما رشحها وجعلها اللغة الرسمية الأولى لأعظم رسالة في الوجود.

ولكن أيكون ذلك القول منصرفاً أيضاً على اللغة (العبرية) أو الهيروغليفية والآرامية التي أنزلت بها التوراة والإنجيل.(٢) ولا تقف اللغة دليلاً مطلقاً على عالمية الدين فقد يصطدم ذلك مع قوله تعالى:" وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَّشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَّشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ "(إبراهيم:٤) فعلى ذلك يكون تعدد اللغات راجع إلى تعدد الأقوام وما اصطلحوا عليه من لغات يتفاهمون بها، ولسنا في معرض الحديث عن أصل اللغة وتبلبل اللغات كما تقول التوراة في بابل،(٣) وقد ترجم الرسول رسائله للملوك ولم يرسلها بالعربية، فهمنا منه أن اللغات تتغير، ليس مفروضاً عليها فهم اللغة العربية.وقد ظل فهم القرآن مرتبطاً في الكثير من أجزائه – كذا الحديث النبوي الشريف – بفهم اللغة العربية، بل لقد مرّ بنا أن العرب أنفسهم كانوا لا يفهمون الكثير من الكلمات في القرآن، ومرَّ بنا بحث الكلمات الأجنبية في القرآن، وليس مفهوماً – لديّ- أن العرب كلهم على درجة واحدة من الفهم اللغوي للقرآن، ومرَّ بنا أيضا أن الدلالة اللغوية والنحوية في القرآن لم تتفق مع ما وضعه العلماء لفهم العربية وخالف النص القرآني - كثيراً - الاستخدام النموذجي لمعايير الفصاحة اللغوية.

التنافس: (المذاهب المتصارعة) قد يكون من دعاوي المحلية ذلك التنافس الإثني والقومي على الزعامة، والاختلاف في فهم الدين الإسلامي، وكل دعوة ومذهب وحزب يدعو إلى نفسه بوصفه الأفضل والأصلح والأفهم لكتاب الله، ولليوم هناك دعوات – سبق الحديث عنها – لرفض السنة

١-لما كان المذهب الشيعي يرفع الأئمة ويصفهم بأنهم من أبناء علي بن أبي طالب من فاطمة فقط، فهم بهذا يرفعون من شأن العربي والعصبية العربية فقط، ويخفضون كل ما عداها ، وكذا الخوارج وإن دعوا إلى أن يكون الخليفة من غير قريش ولو كان عبداً حبشياً، فإنهم التزموا بالأولى فحسب، وهو ألا يكون من قريش، ولم يخرجوه عن العرب مطلقاً طوال دعوتهم المستمرة قروناً ، والدولة الأموية رفعت العصبية العربية فوق كل عصبية ورفعت قريشاً فوق كل العرب ،وألزمت من تزوج امرأة من قريش ولم يكن قرشياً بتطليقها(الحجاج بن يوسف الثقفي نموذجا) وكانت ترى أنه لا كفاءة لعجمي مهما طال عتقه بعمل أو علم أو مال بعربية أو عربي ، ولذا سهل على العباسيين رفع شعار المساواة في دعوة هدم الدولة الأموية على يد من لا يعرفون العربية وهم أهل خراسان فقط.

٢- يقول الدكتور محمد عمارة:" إن التوراة هي الكتاب الذي أنزله الله – سبحانه وتعالى – على موسى- عليه السلام ..وموسى قد ولد ونشأ ، وتعلم ، وبُعث وأوحي إليه بمصر ..ونزلت عليه التوراة باللغة البيرو غليفية – لغته ولغة بني إسرائيل في مصر – ولقد مات موسى ودُفن بمصر ، قبل دخول بني إسرائيل – بقيادة يوشع بن نون – إلى أرض كنعان – فلسطين – وقبل نشأة اللغة العبرية بأكثر من مائة سنة – إذ العبرية – في الأصل- لهجة كنعانية.ثم يقول: "فأين هي التوراة التي نزلت على موسى بالهيروغليفية؟ هل لها وجود أو أثر في التراث الديني اليهودي؟..والجواب: أنه لا وجود لهذه التوراة! د.محمد عمارة : تقرير علمي ، هدية مجلة الأزهر الشريف لشهر ذي الحجة 1430هـ صـ12. في معرض الحديث عن تحريف التوراة. ويقول عن الإنجيل كذلك:" لقد جاء المسيح – عليه السلام – بالإنجيل- أي بشارة بشر بها باللغة الآرامية – فأين هو هذا الإنجيل؟ ..إنجيل المسيح؟صـ33.

٣- صُنفت مئات الكتب التي تهتم بأصل اللغة ونشأتها ، وكان للعرب بعض الإسهام في ذلك، غير أن الإسهام الأكبر – للأسف – كان للأوربيين الذين بحثوا القضية من وجوهها المتنوعة ، وأحيلك فقط إلى كتاب واحد يبحث نشأة اللغة وهو كتاب بعنوان:" في نشاة اللغة (من إشارة اليد إلى نطق الفم) تأليف : مايكل كوربالبس، ترجمة : محمود ماجد عمر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، ع ٣٢٥، ٢٠٠٦م.

ورفض حجيتها في الدين، لما كان موضوع التنافس كبيراً وشائكاً فإنني فضلت الحديث عنه في الفصل القادم.

عدم إلغاء الرق:

موضوع الرق من الموضوعات التي أخذت حيزاً كبيراً من المستشرقين في القرنين الأخيرين فقط، حيث تمّ إلغاء الرق بقوانين سنتها بريطانيا عام 1833م، وقد قامت في الولايات المتحدت الأمريكية يطبقها الغرب على الدول التي تمارس الرق، ومن هنا بدأ المستشرقون في توجيه سهام النقد إلى الإسلام بوصفه لم يمنع الرق رغم حديث أهله عن كونه الدين الخاتم، لقد اطلعت على أغلب الكتابات الحديثة لتقويض تلك الإدعاءات من وجهة النظر الإسلامية، غير أني لم أجد فيها ما يشفي الغلة(العقاد – فريد وجدي- الرافعي وغيرهم الكثيرون) والغالب أن التفسير الذي أقره جورج فلهلم هيجل الفيلسوف الألماني هو الأكثر إقناعاً وعمقاً لليوم، في مسألة نشأة الرق واستمراره([1])، ولما جاء الإسلام كان مصدر الرق أحد أمرين: الحرب (حيث الأسرى) والفقر، حين يعجز المرء عن سداد ديونه كلها، فيضطر أن يبيع حريته لصالح دائنه.

وقد رأينا في الكتاب المقدس (العهد القديم – العهد الجديد) وجوداً طاغياً للرق، وكذا في تقسيم الطبقات في الهند، حيث تكون طبقة البراهمة وهم رجال الدين والحكم في قمة الهرم الاجتماعي، وطبقة العبيد والأرقاء في ذيل السلم الاجتماعي، واعتبروهم نجس، لا يجوز مصافحتهم ولا الحديث إليهم فضلاً عن مخالطتهم.

ومن هنا، فإن الرق ظل محتفظاً بأغلب سماته عبر الرحلة البشرية ولم تتدخل الأديان لإلغائه على مدار القرون، ([2]) وقد ارتبط الرق بالدين كثيرا، وقد كان للكثير من الأنبياء كثيرًا من العبيد، وقد كان للرسول محمد(ص) بعض العبيد وأهمهم زيد بن حارثة الذي اختار البقاء بجوار النبي عن حياة الرق، وهذا استثناء لا يُقاس عليه مطلقاً.

وقد احتفظ القرآن بهذا، ولا أرى ما يراه البعض من الحديث عن أن القرآن قد حضّ على التخلص من الرق تدريجياً ، ومن تلك الآيات الكريمة قوله تعالى :"وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَّقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً

١- يرى هيجل أن السبب في ظهور الرق في العالم الإنساني هو نمو الوعي الذاتي لدى الإنسان ، المختلف عن الوعي الغريزي لدى الحيوان، ومن ثمّ فلما تفهم الإنسان وعيه الذاتي بالأشياء من حوله في مرحلة متقدمة من البشرية ، أراد أن يدعم ذلك بالوعي الاجتماعي ، وكانت وسيلته لانتزاع الوعي الاجتماعي أن ينحط الآخر المقابل له في وعيه الاجتماعي لحساب الرجل المعترف بوعيه الاجتماعي ، فنشأ الصراع بينهما ، حتى رضخ أحدهما تحت تأثيرات متباينة أن يكون احدهما تابعاً للآخر، ومن هنا نشأ الرق البشري، وهو موجود لليوم ولن ينتهي لأن ملكات البشر تتفاوت، وقد كان الرجل الأبيض الغربي يزعم أن عليه رسالة أخلاقية بتخليص الرجل الأسود من الجهالة ، وأن احتلال بعض الأمم للبعض الآخر كان بسبب ذلك، وقد سمعنا كثيرا أن الأمم الجاهلة لا تستطيع أن تدير شئونها ، وقد طال هذا حتى القرن العشرين وربما مستمراً لليوم في الحديث عن الثورات ضد الطغاة فيبررون وجودهم بأنه لا يوجد بديل صالح مكانهم.(راجع : هيجل: العقل في التاريخ، ظاهريات الروح، ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير د.ت)

٢-انظر في موضوع الرق دراسة موسعة أكثر كتاب: الرق: عبد السلام الترمانيني ، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت (عالم المعرفة) ع٢٣،نوفمبر ١٩٧٩م. حيث استفاض هذا الكتاب في تحليل تلك الظاهرة جيدا.

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ** مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَّصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ** مُّؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أتلك الآية وما َهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (النساء:92)

وقوله تعالى: "لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (المائدة: 89) والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُم تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (المجادلة :3)

وقوله تعالى:" فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ * **فَكُّ رَقَبَةٍ** "(البلد:13-11)

وعتق الرقاب في الإسلام جاء ككفارات، من ذنوب وقعوا فيها، ولما كانت تلك الذنوب دورية فيجب- من وجهة نظر الدين- أن تبقى تلك الكفارات باقية، فلن ينتهي القتل الخطأ، ولن يتوقف الحلف وأظن أن هذه الدعوى هراء، فالإنسان سيظل مُقسماً إلى: سادة، وعبيد، وستعمل الدول والسياسات على تفعيل ذلك، وإن في صور متباينة فحسب عما كان مألوفاً في السابق، وما يتغير ويتطور هو المظهر الخارجي لنوع العلاقة فحسب. (**ألا ترى أن أوربا وهي تطالب بتحرير عبيدها تسترق دولاً بأسرها ؟).**

والإسلام لم يعتق الرقيق في أي مرحلة من المراحل (بدء الدعوة - ظهور الدولة – الخلافة الراشدةيضاهيها، فإننا نقول مطمئنين: "إن الإسلام لم يدع لإلغاء الرق بوصفه شيء طبيعي يستمر مع وجود العمران البشري، ومن ثمَّ فلا غضاضة على الإسلام في ذلك ولا ينبغي القول بأنه محلي بسبب هذا، فقد كان في اليهودية رق، وفي المسيحية رق، والحقيقة إننا لن نسلم من وجود فقه خاص في الإماء والحرائر، وقد ظلت الدولة العباسية ومن قبلها الأموية تُعلي من شأن الحرائر وأولادهن على حساب أبناء الإماء، وأكبر شاهد على ذلك أن ولدي الخليفة الخامس في الدولة العباسية: هارون الرشيد: المأمون والأمين قد تم تنصيبهما لولاية العهد بحسب أمهما لا بحسب تقدمها في السن، فعبدالله المأمون كان أكبر سناً وأوفر عقلاً من محمد الأمين، غير أن أمه فارسية (أمة غير حرة) تدعى مراجل، وكانت أم الأمين هي زبيدة الحرة القرشية، فليُقدَّم ابنُها على غيره وإن نقصته الكفاءة، وأقول لقد رضي المأمون بهذا، ولم يثر عليه إلا عندما خلعه من ولاية العهد فحسب.

سنده في ذلك أن اقتصاد الشمال لم يكن يعتمد على الرقيق في الكثير مثل الجنوب.

ولكل هذا تتهاوى تلك الدعوى لمحلية الإسلام، وعلاج الرق في كتاب مستقل قام به الأستاذ عبد السلام الترمانيني في سلسلة عالم المعرفة، فليراجع هناك.([1])

الآيات التي تتحدث عن المحلية:

قوله تعالى: " وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ "(الشعراء:214)
وقوله تعالى: " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ "(فاطر:24)
وقوله تعالى: " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ (النحل:36)
وقوله تعالى مخبراً عن عيسى: " وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِن التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (الصف:6)
وقوله تعالى: " رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ "(البقرة:129-128)
" لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ" (آل عمران:163)
" لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ "(التوبة:128)
" وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (الأنفال:33)
وقوله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات:13) ونرى أنهم لم يلتزموا مطلقاً في موضوع الأفضلية للأتقى، ففي خلافة أبي بكر قالوا إن العرب لن تدين إلا لرجل من قريش، ولم يلتزم بها الشيعة ولا بني أمية مطلقاً ولا العباسيون ولا العثمانيون ولا المماليك ولا غيرهم، فالآية محل تنظير فقط، لا محل تطبيق مطلقاً.
وقوله تعالى :" وقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْءانَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ "(الزخرف:31) لقد قال

دواعي موردها جاهلي كما كان الموقف من خالد بن الوليد عند بداية توليه الخلافة إذ عزله عن إمرة الجيش.
١- وهناك أمثلة كثيرة في التاريخ على أن الإسلام يدعو لحسن معاملة الأرقاء منها: عتق أبي بكر الصديق بلالاً بن رباح ، كما هو مشهور ! لقد أعتقه من باب الرحمة والتواصل في الدين، فقد كان أمية بن خلف يطرح بلالاً في الرمضاء ويلقي على صدره الحجر ، وهو يقول:أحد،حتى أعتقه السيد القرشي

الوليد بن المغيرة: أينزل على محمد وحي وأُترك أنا كبير قريش وسيدها، ويُترك أبو مسعود الثقفي ونحن عظيما القريتين مكة والطائف؟ ولما قال الأخنس بن شريق لأبي جهل: وكانا قد سمعا القرآن مع أبي سفيان ليلاً من النبي: " ما رأيك فيما سمعنا من محمد؟ أجابه: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه. ونزل في ذلك قوله تعالى: " وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ" (الأنعام :124) والملاحظ حول ذلك أنه زعم أن بني عبد مناف قالوا منا نبي، ولم يقولوا ذلك، فأغلب أعمام الرسول لم يؤمنوا في هذا الحين، كان أبو طالب على دين الآباء وأبو لهب يناصب ابن أخيه العداء، والعباس يتستر ولم يعلن إسلامه إلا قرب الفتح، وحمزة آمن في مرحلة متأخرة من الدعوة في مكة، ولم يكن من المسارعين، وأبو جهل لم ير في الدعوة إلا خصوصية إثنية كما رأى الوليد بن المغيرة من قبل، فهم نَفَسَوها عليه، ورأوا أن شرف النبوة مقصور على العرب فقط.

سنجد أن النفاق كله كان عربياً، ولم يقتل الرسول (ص) منافقاً واحداً، بل توسل إليهم وظل على أمل في أن يهتدوا حتى صلى على بعضهم ونهاه الله فقال:" وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ "(التوبة:84) وقيل إنها نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول.

" إن الدين هو الوضع الإلهي الذي اختاره الله لعباده ليصلحهم في الحياتين، ويكون عالمياً بعدم اختصاصه بجنس من الأجناس البشرية، وبعدم انحصار تطبيقه في إقليم خاص أو بيئة معينة. وبامتداد هدايته أزماناً طويلة تتجاوز العصر الذي بدأت فيه، بمعنى أن يكون صالحاً لكل جنس وكل جيل، أو لكل زمان ومكان، أو بمعنى آخر يكون الدين شريعة الإنسان من حيث هو إنسان، بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة التي لا تدخل في ماهية الإنسان كإنسان، ومن دون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أي دين"([1]).

ونحن نتحدث عن الأديان السماوية فحسب ها هنا، ولذا نؤكد أن اليهودية لا تصلح أن تكون ديناً عالمياً؛ لأنها مرتبطة بشعب معين، تعرض للتشريد غير مرة، تقوم حياته على العصبية الحادة

١-عطية صقر: الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، م.س، صـ ١٣.

والعنصرية الجامحة، ذلك بأنهم يحاولون أن يستأثروا بعبادة إله وصفوه بأوصاف خاصة، ويعتقدون أنهم شعب الله المختار وأن غيرهم أميون، ويستبيحون من غيرهم ما لا يستبيحون من أنفسهم كالربا. قول تعالى: " وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَّشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَّشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ" (المائدة : 8) وقوله تعالى: " وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ "(البقرة/80(وقوله تعالى: " وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ" (التوبة:30)([1])

والمسيحية عند تقرير العقيدة لا تعتمد على الدليل المقنع، بل توجب أن تؤخذ بالتسليم المطلق، والعقول في تطورها جرياً على سنن الله الكونية، تأبى أن تظل حبيسة التقليد أو التلقين.

وليس في المسيحية نص على عالميتها، وما نشطت الدعوة إليها إلا بعد اعتناق الرومان لها، وقد بقيت ثلاثة قرون محصورة في طوائف مبعثرة، ولم تقم لها دولة إلى أن تولى الامبراطورية الرومانية (قسطنطين الأول) وكانت أمه قد ربته على المسيحية فحمل قومه عليها، وأمر بتحطيم الهياكل والمعابد الوثنية، واعتبر النصرانية ديناً رسمياً للدولة، وقد قيل إن روما لم تتنصر بل تروميت النصرانية. وقد أبلغ عيسى أنه لم يُرسَل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة"(إصحاح 15: 29-21).

السنة النبوية :

وردت بعض الأحاديث عن النبي تتحدث عن الدعوة، ولكني لن أهتم بها؛ لأن القرآن منه المكي والمدني بشكل واضح، أما السنة فخلاف ذلك، كما أن من يقرر عالمية الدعوة أو محليتها هو صاحبها، غير أنه لا بأس من الإشارة إلى بعض تلك الأحاديث ومنها قوله(ص) قوله: إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة"

وقوله(ص): " تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي".

وفي رواية: " وعترتي من أهل بيتي".

قوله (ص):" مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة من زاوية

١-قد يحتج شخص ويقول : أنت تحتج بالآيات القرآنية ولا تذكر شيئاً من الكتاب المقدس في معرض الحديث عن اليهود والنصارى، وهذا حق، وسببه عندي : أن القرآن فيه مقارنة بين أتباع الديانات المختلفة ، خلافاً للكتاب المقدس، فحين أذكر آية من القرآن يأتي الحديث فيها عن المسلمين واليهود والنصارى ، باعتبار القرآن متأخر زمنياً في النزول عن الكتاب المقدس، ثم إن الكتاب المقدس لم يوجه أي جهد للعرب، بل ربما ذكرهم نتفاً يسيراً ، أما القرآن فقد امتلأت سوره المكية والمدنية بالحديث عن اليهود والنصارى .

من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة !! فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين"(رواه البخاري ومسلم).

إن عالمية الدين كما قدمنا إذا كانت شريعته موضوعة لصالح الإنسان من حيث هو إنسان، ومعنى هذا أن تكون شريعة الفطرة التي فُطِرَ الناس عليها، وقد قال الله تعالى في شأن الإسلام: " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّيْنُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (الروم: 30). والقول السابق أُخذ من الآية فهو مجرد صدى لها لا يقف حجة بها أو لها. (لا يكون الشيء عالمياً بمجرد أن يقول إنه عالمي، كما لا يشفى المريض من مرضه إذا اعتقد في نفسه ذلك، وكان المرض متمكناً فيه، فالقول بعالمية الإسلام جاءت في مرحلة متأخرة حين نظر العرب إلى العالم كله على أنهم إما دار الكفر المخلدون في النار أو بلاد تحت طاعتهم فهم عبيد لهم وقد سادوا على الأمم بفضل امتيازهم على الناس، ولهذا سمحوا بنشر الدين فبه يسودون الناس.
- وفي وفاء التشريع بكل القطاعات، وقد قام الإسلام على تنظيم العلاقات بين الإنسان وبين الله، وبينه وبين الناس، وبينه وبين نفسه في المجال الاقتصادي والخلقي والثقافي والسياسي، وسائر المجالات" مصداقا لقوله تعالى: " اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ "(المائدة :3) وهي من الآيات الدالة على المحلية ؛لأنه يتحدث بضمير المخاطب (لكم) أي العرب.
- الإسلام دين السلام، والقاعدة عنده هي السلم.

*** الأدلة الواقعية على عالمية الدين الإسلامي:**

- أوامر التبليغ:

قال تعالى: " يَا أَيُّهَا المُدَّثِرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ(قومك) "(المدثر:2-1)([1])
أوامر التبليغ كثيرة منها قوله تعالى: " وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَّدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ" (آل عمران:104) وهذه الآية لم يلتزم بها المسلمون في فتوحهم، فهم قالوا: إما الإسلام أو الجزية أو الحرب، ولم يرسلوا المبشرين أولا لدعوة الناس وحملوا الأمم على الدخول في الحكم الإسلامي، وليس الدين الإسلامي، حتى إنهم قد انزعجوا لكثرة الداخلين في الإسلام

١-الدعوة يسبقها التمهيد الفكري والفلسفي ، وما كان في قلة(أقصد الحنفاء) قبل الدعوة لا يرقي لذلك ؛ فهم لم يوجهوا سهاماً لمكة وقريش، وآلهتهم، بل بحثوا عن الخلاص لأنفسهم وتشتتوا كما نعرف، حتى بعد أن دخل أحدهم الإسلام تتصر في الحبشة.

توافرت به بعض الأسباب الصالحة لعالميته وهي:

١- القوم الذين يحملون عبء الدعوة العالمية لابد أن تتوافر فيهم صفات تناسب هذه المهمة الضخمة، من الصبر والتحمل والمخاطرة والشجاعة واحترام العهود والنجدة والمروءة وحب الحرية.... وما كانت المصادمات الأولى التي حدثت بينهم إلا نوعاً من العناد.

٢- اللغة العربية التي كانت اللغة الرسمية للدعوة الإسلامية، والتي تأسست جذورها في الجزيرة العربية، وقد تحدث العلماء في فضلها ومكانتها العالية الرفيعة.(١)

٣- المكان الذي بُعث فيه النبي أولاً له صلاحية كبيرة لانطلاق الدعوة منه إلى العالم كله؛ فالجزيرة العربية في مكان وسط يتصل بآسيا وأفريقيا وأوربا.

٤- إن الجزيرة العربية بها البيت العتيق، أول بيت وضع للناس، وبناه أبو الأنبياء إبراهيم ،الذي تدين له جميع الأديان المعروفة في ذلك الوقت.(٢) وفي انطلاق الدعوة منه إشعار للعالم بأن رسالة محمد (ص) منبثقة من هذه الرسالة التوحيدية الأولى.

٥- كانت الأديان الموجودة في العالم ممثلة في بلاد العرب في ذلك الوقت، فكان فيها اليهود، والنصارى، والمجوس، والوثنيون، والصابئة، وعبدة الجن والملائكة ومن إليهم. وقد وقف الإسلام في مواجهة هذه الأديان ليظهر عليها كلها.(الجزيرة ملخص العالم)

هناك بعض **الحقائق التاريخية** التي لا يمكن الفكاك منها وهي:

- العقلية القبلية والصراع القبلي على السلطة. (لقد بدأ الإسلام ديناً قبلياً ثم تطور فصار قومياً، يحمل بذور العالمية، ولكنه غاص في أوحال العصبية القومية التي تنازعت السلطة، ثم العصبية القومية من بعد ذلك، ثم العصبية العالمية بين الدول وصار للإسلام عدة دول تدعي الخلافة الإسلامية ، ثم تقوقع فعاد مظهراً شكلياً للتدين لا يصمد كثيراً أمام العصر الجديد ومتطلباته الراهنة)

- الدعوة الإسلامية، دين أم دولة؟ الواقع أنها بدأت دولة، ولها مقر للخلافة، فكان أبو بكر ومن ورائه عمر وعثمان يرسلون الجيوش للغزو والإغارة ويطالبون الدول التي لن تستجيب لهم بالدخول في الإسلام ودفع الجزية أو تحاربهم، وكانت الحرب هي مطلوبهم حتى يأخذوا كل شيء يجدونه ويحكمون تلك البلاد حكم الفاتحين، وقد يهون من ذلك معضلة فتح دمشق أفتحت عنوة على يد خالد بن الوليد أم صلحاً على يد أبي عبيدة بن الجراح، والغالب أنهم لم ينشروا الدين واللغة إلا بعد مرور أكثر من قرن على دخول تلك الدول تحت حكم الدولة الإسلامية.

١-قد نفهم من تلك أن القرآن كان موجوداً باللغة العربية في السماء فلما أراد الله أن ينزل اختار القوم الذين يتحدثون بها فأنزله إليهم وهذا تفكير صبياني.

٢-أكد هربرت بوسه العالم الألماني أن البيت العتيق(الكعبة) لا تعرفه التوراة ولا الأناجيل مطلقاً، ولا يعترف أصحاب هذه الأديان بأن إبراهيم هو من بناه ، ونحن لا نرى اليهود يذكرون البيت العتيق في أدبياتهم مطلقاً ، ولا يهتمون بها مقدار ما يهتمون بطور سيناء مثلاً أو المسجد الأقصى أقصى آمالهم ومبلغ أمنياتهم، فالحديث عن عالمية الكعبة(يهودية – مسيحية – إسلامية) هو قول المسلمين دون اليهود والمسيحيين.(وقد ذكرناه في هذا السفر)

"(التوبة:29)([1]) قوله تعالى:" وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (البقرة /190) وقوله تعالى:" الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (البقرة/ 194).

ورداً من بعض الأمم التي كانت لها حضارة هدمها الجيش المسلم في فتوحه، فقد ظهر في التاريخ ما يُعرف باسم الشعوبية: وكانت الشعوبية إصبعاً من أصابع الهدم لبناء الإسلام، والعودة به إلى عهد الجاهلية حيث التعصب للأنساب والأحساب، واتخذت هذه الحركة مركزها في فارس على الباب الشرقي لدار العرب، فظل الفرس متمسكين بماضيهم البائد، ممتلئة قلوبهم حسرة على ضياع مجدهم السياسي، على الرغم من قيام دولة إسلامية كبيرة في بلادهم وعلى أكتافهم وبجهودهم (دولة بني العباس) وتبنوا المذهب الشيعي الباطني على ما سيأتي في الفصل القادم للنيل من الإسلام وهدم أركانه ، وإوهانه، وقد رأينا أنهم كانوا يحاربون الدولة التركية، واضطروها للعودة وترك مجاهدة وفتح فيينا عدة مرات. ومن الجدير بالذكر قصر مفكري المسلمين الشعوبية على المنظور السياسي فحسب، فالأخطر والأدهى أن الشعوبية كانت لها أصابع فكرية ودينية في الإسلام أشد من التشيع المذهبي، والأخطار السياسية المحدقة، ومنها : أن أغلب علماء اللغة العربية ومن وضعوا لها القواعد كانوا من الفرس، وكذا المؤرخين(الطبري) والمفسرين الكبار(الزمخشري – الطبري وغيرهما الكثير) وفي مجال الفقه (أبو حنيفة الذي يعود أصله إلى رجل كان خادماً لبيت النار في المجوسية وقد مسّ أصله الرق) ومجال الحديث (البخاري وغيره) واللغويون والنحاة (سيبويه – أبو على الفارسي – الخليل بن أحمد الفراهيدي) والأخير منْ وضع علم العروض والقوافي المعروف بموسيقا الشعر.

1- يقول ابن كثير في هذه الآية :" وقوله تعالى: " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله. بل لحظوظهم وأهوائهم فلهذا لا ينفعهم إيمانهم بقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم. ولهذا قال: " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب " وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا واستقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحر وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريبا من عشرين يوما ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى. وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله. بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم. وقوله: "حتى يعطوا الجزية" أي إن لم يسلموا "عن يد" أي عن قهر لهم وغلبة "وهم صاغرون" أي ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه" ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك مما رواه الائمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا نحيي منها ما كان خططاً للمسلمين ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولانكتني بكناهم لا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وأن نجز مقاديم رؤوسنا وأن نلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانين ولا باعوثاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم. قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدا من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه

وهؤلاء قد عاقوا اللغة أكثر مما أفادوها، واليوم نجد أنهم من وضعوا التقعيد للغة النموذجية التي نجدها تخالف في الكثير من الأحيان القرآن الكريم – كما سبقت الإشارة في القسم الأول - والحديث عن وضعهم الأحاديث عن النبي مشهور وغير محط انتقاد، وقد ساعدوا على إدخال الإسرائيليات في التفسير، وسنجد الإسرائيليات كثيرة في التفاسير التي جاءت من عند البلاد التي كانت ذات حضارة غلبت عليها الدولة الإسلامية الناشئة، وسنجد كل الفرى التي تطعن في الدين الإسلامي تأتي من قبل هذه البلاد، ولم يكن غريباً يلتمسون الملك ولو على حساب الدين أن يعتمدوا في طلبه على أهل خراسان الذين يجهلون العربية ويطلب صاحب الدعوة من أبي مسلم الخراساني أن يقتل كل من صار طوله خمسة أشبار يتحدث العربية في خراسان؛ لئلا يطلع أحد على الدعوة ويعمل على إفشالها، فالملك أهم، وقد رأينا في بلاط الدولة العباسية أن الفرس لهم اليد الطولى ولم يستقم الأمر لأبي جعفر المنصور حتى قتل أبا مسلم الخراساني وقال: اليوم استقام الملك لبني العباس، ثم جاءت أسرة البرامكة، ونكبتهم على يد هارون الرشيد، ثم صار بعد قليل الخلفاء لعبة بأيديهم على ما هو معروف في كتب التاريخ، وقد كانت الأفكار التي تفتُّ في عضد الدين كلها من الشرق سواء من الهند أو الفرس وفي هذا كُتب الكثير.

النبوة وراثةً:

قد يكون من غير المألوف الحديث عن أن النبوة لا تكون بعد إبراهيم عليه السلام إلا وراثة من نسله هو وحده فقط، وقد لفت الرسول ببعض الأحاديث إلى هذا المبدأ حيث قال: " عن أبي هريرة عن النبي(ص) قال: " بُعثتُ من خير قرون آدم قرنًا فقرناً ،حتى كنت من القرن الذي كنت منه " وروى مسلم بن واثلة بن الأسقع عن النبي(ص) أنه قال: " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفي قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"([1])

أورد بن كثير في البداية والنهاية هذا الحديث: " وخطب النبي(ص) فقال: " أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من بين أبوي، فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً"([2])

١-القسطلاني: المواهب ، جـ ، صـ١٣

٢-ابن كثير: البداية والنهاية ، دار العقيدة ،٢٠٠٧م، مجـ١، جـ٢، صـ٢٨٥ أخرجه البيهقي في الدلائل ،وإسناده ضعيف.

من الحديثين الشريفين السابقين (فقط – وغيرهما في المجال ذاته كثير) يتضح بجلاء أن هناك سلسلة واحدة من التنقل في الأصلاب والأرحام المحددة، حتى انتهى الأمر فيها إلى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم... بن عبد مناف... حتى إسماعيل بن إبراهيم أبو الأنبياء التاليين جميعاً." ([1])
وكذا لدينا حديث قال النبي (ص) عن مبدأ الاختيار بشكل أشمل وأكبر: " إن الله اختار خلقه فاختار منهم آدم، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختارني من العرب، فلم أزل خيارا من خيار،ألا من أحبّ العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم"وهذا حديث ضعّفه العلماء.

ومن بين الآيات القرآنية التي تشير إلى تلك الحقيقة قوله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (آل عمران: 35-34)
وظاهر النص يوضح أن الله لم يقم بعملية الاختيار، فالاختيار يكون من متعدد، بل اصطفى مباشرة، والاصطفاء قد يكون معناه- فيما أفهم – إضفاء صفات جديدة على المصطَفى لم تكن موجودة فيه من قبل بسبب عملية الاصطفاء ذاتها، والاختيار لعله يكون بسبب ما في العنصر الذي تم اختياره من فضائل ومميزات رجحته على غيره، وهنا نلمح أن الاصطفاء تمّ بالتعاقب، واصطفاء آدم، كان على غيره من الخلائق – كما أشار الحديث السابق – ثم اصطفى نوحاً وذريته وهلك بقية الخلق عدا ذرية نوح المؤمنة كما هو مشهور ثم اصطفى من ذرية نوح إبراهيم عليه السلام وذريته وقد والحديث هنا عن ثلاثة أشياء:

الأول: أن إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت الحرام، وهو ما تؤمن به العرب ولا يؤمن به بنو إسرائيل – مطلقاً- ولا يؤمنون بسفر إبراهيم عيله السلام إلى أرض الحجاز- لن نبحث تلك الجزئية- والقرآن يحترز في الألفاظ؛ فيذكر أنهما يرفعان القواعد ولم يقل يبنيان – مثلاً- لوجود دلائل كثيرة على أن بناء البيت الحرام كان قبل ذلك بمئات السنين، وهذا ما حكاه القرآن إذ قال: " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلعَالَمِينَ "(آل عمران:96) وبالتأكيد الناس سبقوا إبراهيم، وما يُقال عن أن آدم هو من بناه أو الملائكة قول مطول لا سبيل إليه الآن.([2])
الثاني: أن النبيين قد توجها إلى الله تعالى بالدعاء أن يجعلهما مسلمين وأن يجعل الدعوة والرسالة في ذريتهما. (وبنو إسرائيل يبنون اختيار الله لهم وتفضيلهم على غيرهم لهذا النسب، حيث إن إبراهيم

١-ليس من قبيل الصدفة أن يكون اليهود والعرب أكثر الأمم في العالم (بل الأمتين الوحيدتين) اللتان تحتفظان بعلوم الأنساب، وقد مرّ أن اليهود كانوا لا يقبلون دعوة إصلاحية ولا يدينون لأحد إلا من أبناء يعقوب(إسرائيل) والسبب الأكبر في رفضهم الإيمان بمحمد بن عبد الله لما خرج ، أنه لم يكن من بني إسرائيل ، فهم يظنون أن إسرائيل وحده من يمتلك أبناؤه النبوة والرسالة وبالتالي مفاتيح الجنة ، وكذا نجد أن العرب يفخرون بالأنساب التي يحفظونها، ولا يدعون ومن يدعي لنفسه نسبا غير نسبه فإنه يكون مرذولا ومهجوناً وسط قومه، وقد رأينا الدولة الأموية قائمة على النسب، وكان ابو بكر نسّابة، وقد سأل هرقل أبا سفيان عن نسب النبي في المحاورة الشهيرة ، كل هذا يؤكد لنا أن النسب والوراثة أمر هام عند الإبراهيميين في التقبل للدعوة والسبب الذي أراه في رفض الغرب – لليوم – للإسلام أنه خرج من أبناء غير أبناء إسرائيل، وإنما جاء من العرب – الحفاة العراة الأجلاف- ، وهكذا يقف مبدأ الوراثة والتأكيد عليه ونسبة النبي لإبراهيم الجد - الذي يلتقي فيه العرب مع بني إسرائيل - قيمته في تأكيد نبوة محمد وراثة بأبائه الأقدمين الأنبياء الكبار، وليس من باب المصادفة أن يكون إبراهيم أبا الأنبياء.
٢-انظر : د. عبد العزيز غنيم عبد القادر ، قصة البيت الحرام ، مجمع البحوث الإسلامية، ٢٠٠٧، أرخ للبيت الحرام ، حتى اليوم الراهن.وكذا كتاب: محمد محمد الحسيني : أحداث في حياة سيدنا إبراهيم ، مجمع البحوث الإسلامية ، ٢٠٠٥م.

أنجب إسحاق وإسحاق أنجب يعقوب الذي سُمي بعد ذلك إسرائيل الذي أنجب اثني عشر سبطاً، كما هو مشهور في سورة يوسف والعهد القديم ، وغيرهما)

الثالث: دعوتهما أن يخصَّ الله تعالى تلك البقعة المباركة بنبي ورسول يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وهذا النبي هو محمد بن عبد الله، وقد يكون قطع الصلة هنا أن هناك أنبياء آخرين جاءوا في تلك البقعة، منهم شعيب، وصالح، وهود، ولكن القرآن يتوجه إلى القول بأن المقصود محمد، وإن لم يختلف أحد على أن الأنبياء الذين ذكرتهم من ذرية إبراهيم أيضاً.

و"في مواضع عديدة من القرآن تم إحصاء قوائم بأتباع الديانات التي اتصل بها محمد(ص)"([1]) ويشار إليهم بأنهم جميعاً مؤمنون، وهم إلى جانب المسلمين: اليهود والنصارى والصابئة، حيث يقول الله تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة/ 62). وربما يقصدبالصابئة :المندعيين أتباع طائفة المعمدان المستوطنة في جنوب بلاد النهرين([2])، وتغير ترتيب القائمة في المائدة حيث يقول تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ "(المائدة:69) حيث تمت الإشارة إلى النصارى بعد الصابئة، كما أن هنا لطفة لغوية دقيقة برفع الصابئون وحقها النصب اسم إن، وتوجد في سورة الحج قائمة ثالثة ذكرت الصابئة والنصارى بالتتابع نفسه المذكور في المائدة، وأُضيف إلى القائمة الثالثة جماعة المجوس وأشير في النهاية إلى الوثنيين.

قال تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ "(الحج:17)

وبذلك يصل خط المنحنى من المسلمين إلى المشركين، وأخذ أتباع ديانات الوحي القديمة وضعاً وسطاً بين النقيضين. وتنتهي القوائم في سورتي البقرة والمائدة بشهادة مرضية (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحًا لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (من يوم الحساب) وهم مثل المسلمين مرشحون للخلاص. ويعد الوضع مخالفًا في سورة الحج، فالمجموعات

١-هربرت بوسه: أسس الحوار في القرآن الكريم ، ترجمة: أحمد محمد هويدي، المركز القومي للترجمة، ط ٢، ٢٠٠٩م، صـ٦٤.

٢-كلمة صابئة من صبأ ،أي خرج عن دينه، وهم قوم كانوا يعبدون الكواكب في المشهور ، مقرهم في حران بين النهرين ، خرج منهم علماء وفلاسفة ومنجمون ،ومنهم الكاتب الشاعر إبو إسحاق الصابي؛ وقيل : في رفع الصابئين : " الواو استئنافية ،والصابئون رفع على الابتداء ،خبره محذوف ، والنية به التأخير كما في "إنَّ" من اسمها وخبرها ،كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا ،والصابئون كذلك، هذا ما رجحه سيبويه في مخالفة الإعراب ،وأنشد شاهداً له :

وإلا فاعلمُوا أنَّا وأنتم بُغاة ما بقينا على شقاق

أي: فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك.

محي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم ، دار اليمامة ،ابن كثير ،بيروت ، ٢٠٠٢م، مجـ٢، صـ٢٧١.

وقد ذكر بن كثير في تفسيره أن:الصابئون طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين.والخلاف حولهم شديد.

الست أي: المسلمون واليهود والصابئة والنصارى والزرادشتيين والوثنيين، تعرف بأنها تمثل جماعات مؤمنة ذات ملل مختلفة، ويكون المضمون سلبياً بصورة عامة، وعن الاختلافات الموجودة بينهم فإن الرب سيقررها يوم البعث، بناءً على ما قيل في نهاية الإحصاء.([1])

وبوسعنا أن نلتفت إلى القضية من ناحية إذا كان المسلمون وأتباع ديانات الوحي الأخرى يمثلون مجموعة متميزة مقابل الوثنيين الذين يمثلون المجموعة الأخرى، وفي هذه الحالة يصبح الحكم إيجابياً على أهل الكتاب. إلا أن هذا ليس هو المقصود كلية. ويستنتج من مقارنة الصيغة الختامية للقائمة الثالثة بالقائمتين الأخريين أن محمدا(ص) غيَّر موقفه وتنصل من أهل الكتاب. وهذا ما أشرنا إليه آنفاً، من ضرورة الفهم القرآني في ضوء التطورات السياسية. وقد رصدنا تطور الخطاب القرآني لبني إسرائيل وأهل الكتاب ثم اليهود.

وقد حذر محمد(ص) – كما أشار القرآن – المؤمنين بإلحاح من الانقسام إلى طوائف مختلفة، حيث يقول الله تعالى :" وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ "(آل عمران : 103) وفي الواقع فإن البشرية لا تزال منقسمة إلى أمم دينية مختلفة. أما في الإسلام فقد تحقق نموذج الوحدة :" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ "(هود:119-118)

وتدخل في هذه الصياغة تعاليم القدر: الرب أراد أن توجد طوائف دينية مختلفة، فالمسلمون الذين رُحموا باتباعهم العقيدة الصحيحة والوحدانية، كانت الرحمة مقدرة لهم فعلاً قبل وجودهم، لذلك(أي للرحمة) خلقهم الرب، ولذلك تمَّ وضع نموذج آخر للتعدد الديني وهو أن الانقسام لم يتسبب فيه البشر بل هو إرادة الله (الأنعام: 149-136،الرعد:21) وإذا كانت هذه هي إرادة الرب فمن الضروري أن يحترمها البشر (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن (قسمكم إلى جماعات مختلفة) لِّيَبْلُوَكُمْ (من الوحي) فِيمَا آتَاكُمْ "(المائدة:48)

ويمكن أن تفهم الأية في الزمن الحاضر بأن أراد مقابل تمنى أن يريد، ويقسم مقابل قسم... إلى آخره.. وفيما بعد يوصف الوضع الدائم. وبما أن الرب يصدر عنه الخير فقط، فيجب احترام تنوع الطوائف المؤمنة، ويوجد في الاقتباس التالي استحسان إحدى العقائد القائمة على الوحي(لكل جعلنا

١-هربرت بوسه، أسس الحوار، م.س، صـ٦٦.

منكم شرعة ومنهاجاً) ويمكن رؤية معنى التعدد الديني على النحو التالي: " إن الرب يريد أن يضع البشر تحت الاختبار، وعلى المؤمن في التعدد الديني أن يعرف إرادة الرب وحكمته، حتى وإن كان لا يدرك هذا، وفي هذا النطاق ينبغي للمرء أن يفعل الخير كما ترسمه العقيدة، وينبغي له أن يسلك تجاه الديانات الأخرى مسلكًا بسيطًا، والقرار في من يعتنق العقيدة الصحيحة هو: أن الرب سوف يخلصه عند الحساب:" فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ "(المائدة:48)

فالتعددية الدينية نشأت إما عن طريق المشركين من البشر، وإما أنها إرادة الرب، ويرجع النموذج الثالث لشرح هذه الظاهرة إلى فكرة التعدد العنصري.

" وقد عُرف محمد بأنه نبي العرب. وكما اعتقد فإنه دعى ليعلن للعرب الرسالة بلغتهم ليتمكنوا من المشاركة في الوحي الذي اختصت به شعوب أخرى من قبل. وبتعبير واضح تأتي قاعدة الاختصاص اللغوي في القول التالي : "وما أرسلنا من رسول(إلى أي شعب كان) إلا بلسان قومه ليبين لهم) (إبراهيم :4) وقد قصد الشيء نفسه لأن محمداً أُرسل إلى شعب محدد، وبما أن محمد رُمز إليه بأنه أخوهم يبرز الارتباط الإثني العرقي بين النبي والشعب. وبالمثل فقد كان هود أخا عاد (الأعراف:65) وصالح أخا ثمود(الأعراف:73) وشعيب أخا مدين (الأعراف :85) ولوط أخا سكان المدينة أي سدوم."([1])

رمز أخر يفترض الارتباط الاثني بين النبي وشعبه:

ويوجد في القرآن إشارة إلى أن النبي ينسب إلى مجموعة خاصة وهو معنى الأخ نفسه، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: " هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمَهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِيْنٍ"(الجمعة:2) ولا ريب أن الأميين هم غير الإسرائيليين، وقيل هم الذين لا يقرأون (القرطبي) وقيل هم العرب(ابن كثير) ومن تابعه، والخلاف ليس بالكبير، ولكن أغلب هؤلاء الأميين كانوا وثنيين، لا يعبدون إلا الأصنام والأوثان، والكتاب نزل بالعربية، والتعليم للحكمة كان بالعربية كذلك، وقد تكرر هذا المعنى في آيات متعددة وخاصة القرآن المدني (البقرة:151-129) و(آل عمران:164)

١-هربرت بوسه: أسس الحوار، ص٦٧. وقد فندنا نقطة اللغة وكونها ليست عالمية في السابق، وخلصنا منها ، ولكن الكاتب يدعم الرأي القائل بأن الرسول للعرب وحدهم من خلال الاستشهاد بالآيات الآتية: "وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ" (الأعراف:٦٥) ،وقوله تعالى:" وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (الأعراف:٧٣) وقوله تعالى:" وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" (الأعراف :٨٥) ويأخذ بالقياس ، فما دام كل نبي أرسل إلى أهله وقومه الذي يُعدّ فيها أخاً، وكل أنبياء بني إسرائيل كذلك، فإن محمدا نفسه ينطبق عليه نفس النهج، وهذا قياس غير فاسد، ولكنه يُخرج الديانة الإسلامية من العالمية إلى المحلية .يأدلة قرآنية إيمانية يؤمن بها المسلمون أنفسهم ، والحق أن شيئاً كبيرًا مما ذهب إليه بوسه صحيح ، وكانت القبلية لها تأثيرها في القرآن الكريم والسنة وما تلا ذلك، غير أن هذا لا يقف وحده، فالدعوة من محمد لقومه لا مراء في ذلك، ولكنها تنسحب كذلك على بقية الناس، مصداقاً لقول الله تعالى:" وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ "(المائدة:٤٨)

يلح الكثيرون على القول بإثبات أن النبوة وراثة فقط، يرثها الخلف عن السلف، وقد تواترت آيات في القرآن تشير إلى هذا المعنى، يقول تعالى:" فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَّأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ" (الأعراف:169) ولم يشر الله تعالى في صدر الآية منْ ورث منْ، ولكنها سنة الله في النبوات والرسالات، وكذا قال تعالى:" ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ "(فاطر:32(وقد مرّ بنا أن الذين اصطفاهم الله هم : آل إبراهيم وآل عمران (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ"(آل عمران:33) فالذين اصطفاهم الله هم ورثة الكتاب، والكتاب هنا يشير إلى النبوة والرسالة، فالنبوة ،بنص الآيات محصورة في تلك الذرية فحسب، ولما كان القرآن قد تحدث بطرق متنوعة عن بني إسرائيل فقد وصفهم بأن منهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات كالذين قال الله فيهم: " وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ "(آل عمران:199) وهناك صنف آخر غير هؤلاء يقول فيهم الله تعالى : " ومَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَقُضِيَ وإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍ مِّنْهُ مُرِيبٍ "(الشورى:14)([1])

وهناك إشارة واضحة إلى وراثة بني إسرائيل الكتاب عن موسى، حيث يقول تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الهُدَى وأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ "(غافر:53)

فالوحي استمر في التواصل مع وظيفة النبوة من جيل إلى جيل وبالأسلوب نفسه، وعلى سبيل المثال ورث الإسرائيليون الأرض من المصريين يقول تعالى: " فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ* إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ* إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّا لجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ " (الشعراء:59-53) وكذا قوله تعالى:" وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ " (الأعراف:137) وورث سليمان داود:" وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوودَ "(النمل: 16) ويوجد إبراهيم ف ي بداية سلسلة

١-والتفرق في الكتب التي أنزلها الله تعالى سمة أساسية للسابقين واللاحقين، أي سمة بني إسرائيل والمسلمين (لما هو موجود من اختلافات بينة بين أهل السنة والشيعة في تأويل وجمع وتفسير القرآن الكريم) أليس هذا الاختلاف بين الشيعة والسنة مما أشار الله تعالى إليه في بعض السور مثل:(البقرة:117/213/253) و(آل عمران: 19/105) و(يونس: 19/93) و(هود:110) و(النمل: 64) و(فصلت:45) و(الشورى: 14) و(الجاثية:17) وغيرها من الآيات التي تشير إلى الاختلاف في الكتاب.

النسب. (لابد أنه في بداية تلك السلسلة؛ إذ لا تستقيم السلسلة من دونه) وكما يظهر في سورة آل عمران (آل عمران:33) فسلسلة نسب المسيح تعود إلى آدم, وبينما يُشار إلى آدم ونوح على أنهما شخصيات فردية وأنبياء فرديون، فإن الحديث عن إبراهيم يكون عن آل إبراهيم (بما في ذلك آل عمران الذي ينتسب إليهم المسيح) وآمن إبراهيم(مريم:48-41) لذلك وُهب إسحاق وفيما بعد يعقوب (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا "(مريم:49) وبما أن إسحاق صار نبياً: " وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ" (الصافات:112) وتخبر الآية (27) من سورة العنبكوت تتابع الأمر بعد ذلك، قال تعالى: " وَوَهَبْنَا لَهُ (إبراهيم) إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ " ولم يقل إسماعيل. ومن الضروري أن يذكر إسماعيل إلى جانب إسحاق والذي يعتبره العرب أباهم الأساسي.

وتمَّ عرض قائمة الميرات في سلسلة الأنبياء على النحو الآتي: إبراهيم – إسماعيل – إسحاق- يعقوب- الأسباط (أبناء يعقوب الاثني عشر أي أبو الأسباط الذين يشكّلون في مجموعهم بني إسرائيل) وموسى وعيسى.وجميعهم أنبياء(البقرة:126) (آل عمران:86) (النساء:163 الجزء الأول) واقتصرت القائمة في سورة الشورى على إبراهيم وموسى وعيسى ، ثم في سورة الأعلى (19) على إبراهيم وموسى.

وينضم محمد إلى قائمة الميراث التي يشرح فيها أن العرب ذرية إبراهيم ،فإبراهيم ليس مشيد الكعبة (أو مطهرها) فحسب(البقرة:127-125) بل أمره الرب " ببناء الكعبة" لتكون مقامًا (الحج: 26) وظهر إسماعيل في التطور التالي لهذه الرواية، فقد ساعد أباه في أثناء بناء أو تطهير الكعبة، واتخذ مسكناً في مكة وينسب محمد إلى ذرية إسماعيل.([1])

- اليهود ومحمد:

أخذ الحوار منذ الهجرة بين اليهود ومحمد(ص) طابع العداء، ولم تدم فترة المعاهدات طويلاً، فبعد حرب بدر مباشرة بدأت الحروب بين النبي واليهود، وانعكس هذا الحوار في القرآن بأساليب متنوعة، ويمكن تقسيم موضوعات الحديث ضد اليهود إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: روايات متناثرة لتدعيم رأي محمد(ص)(قصص بني إسرائيل، وهو قد جاء بوفرة في القرآن

١- هربرت بوسة يقول في شأن الكعبة:" لا يوجد أي دليل في الكتاب المقدس على أن إبراهيم (وإسماعيل) مشيدا للكعبة.
تمثل رواية إبراهيم أنه أول مسلم ومشيد للكعبة ،عنصرا واحدا في تعاليم محمد من ميراث الكتاب والنبوة ، وهي تستعمل في المقام الأول كدليل ضد يهود المدينة؛ لأن محمدا شرعاً بعد نبياً مرسلاً من الرب للعرب ورثة إسماعيل من إبراهيم."صـ٧٥.

المكي)([1])

الثانية: وجود قوائم تمَّ فيها إحصاء أخطاء بني إسرائيل.([2])

الثالثة: تناول أخبار مفردة، يرجع إلى الأحداث المعاصرة(الأحزاب – الحشر الخ) .

وتواصلت آثام اليهود بأساليب مختلفة مثل: التعسف في فهم الكتاب، مما أدى إلى إخراجهم الناس من ديارهم (البقرة 85) وشعيرة السبت(البقرة 65، الأعراف 60) وأخذ الربا (النساء:161) واختلاس أملاك المساكين بحجة إباحته مع الوثنيين (آل عمران:75) وأنهم ليس عليهم في الأميين سبيل، ووجه اتهام ضد أحبار اليهود وهو أكل أموال الناس بالباطل، (النساء :161، التوبة34) المائدة (42) (المائدة :62-63) (المائدة 79)

ولم يسلك اليهود مسلك اعوجاج أخلاقي فحسب، بل ارتكبوا أخطاء مذهبية، فشرحوا أن عقاب النار يكون لفترة محدودة (البقرة:80،آل عمران: 24) وادعوا أن الرب توقف عن العطاء، " وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ "(المائدة:64) وشغلت الفكرة اليهودية أنهم شعباً مختاراً دوراً ثانوياً في جدل محمد، وقد ادعوا أنهم أحباب الله(الجمعة:6) والجنة تخصهم وحدهم (البقرة: 94) وشرح القرآن هذا السلوك المتكبر بدعوة تهكمية حين طلب أن يتمنوا الموت قائلاً: " قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "(البقرة: 94).

وكما سلك ذلك النهج مع اليهود سلك مثيله مع النصارى، غير أن التركيز على أمور أخرى أهمها العقيدة وهي التأكيد على كفر القائلين بالتثليث " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَّمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة:17) وفي موضع ثانٍ يقول أيضاً:" لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"(المائدة:73-72)

كذلك نحى القرآن على اتخاذهم الرهبان والأحبار أربابا من دون الله : " اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (التوبة :31) وكذا(آل عمران:64/80)

١- انظر:(البقرة: ٢٤٦/٢١١/٨٣/٤٧/٤٠، آل عمران: ٩٣/٤٩، المائدة: ٣٢/١٢، الأعراف: ١٣٨/١٣٧/١٣٤/١٠٥، يونس: ٩٣/٩٠، الإسراء:١٠٤/١٠١/٤/٢، طه:٩٤/٨٠/٤٧،الشعراء: ١٩٧/٥٩/٢٢/١٧، النمل:٧٦،السجدة:٢٣، غافر:٥٣، الزخرف:٥٩، الدخان:٣٠، الجاثية:١٦، الأحقاف:١٠، الصف:١٠/٦)
٢-انظر(البقرة: ٨٧/٦١، آل عمران: ١١٢، المائدة:٧٨) وقائمة الفسق اليهودي في (البقرة : ٤٩-٦٤، النساء:١٥٣-١٦٢)

وقد فضح القرآن أيضاً سلوك بعض النصارى المادي حين قال: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"(التوبة:34)

ورغم كل ذلك بقي أن نقول إن القرآن لم يدشن حملة عدائة صريحة على النصارى كما فعل مع اليهود، ولم تغالي النصارى كما غالت اليهود، وأكد القرآن في صراحة تامة أن النصارى أقرب إلى المسلمين من اليهود في قول لا يحتمل التأويل:" لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ "(المائدة:82).

أيمكن أن نفهم من ذلك كله أن القرآن بعد أن أثبت أن النبوة وراثة من إبراهيم عليه السلام في ذريته([1]) ومقتصرة على إسحاق كما أشار القرآن إلى ذلك مرات عديدة في سياق الحديث عن نبوة يعقوب، ونبوة يوسف، وتولد عن تلك الوراثة الإيمان بالديانة اليهودية، والديانة النصرانية وكلتاهما ديانتين من ذرية إسحاق، وأنه لما فشلت ذرية إسحاق(بنو إسرائيل) في السير وفقاً للناموس الأعظم، لم يعد يُجدي فيهم بعث نبوات جديدة، فإن الله تعالى لِما علمه فيهم أراد أن تكون النبوة الأخيرة في غير أبنائهم، وفي غير لسانهم، فأرسل محمداً(ص) العربي الأمي إلى الناس؟

قد يكون ذلك القول صادقاً بدرجات متباينة، فمحمد هو آخر الأنبياء وفقاً للقرآن وللشواهد التاريخية، ولم يكذب ذلك أحد، حتى المتنبئين في قومه فشلوا في إحراز أي تقدم، ولم يحرز البهائي والبابي – حديثاً- شيئاً يُذكر بإزاء محمد ودعوته ونبوته.

ولكن يبقى الحديث عن معاملة محمد(ص) لأهله ومعاملته لليهود المشار إليها آنفاً عائقاً ضد القول بأنه أُرسل إليهم جميعاً، وإنما هناك تشابهات في الكتب المقدسة (التوراة الإنجيل، وأسفارهما وبين القرآن الكريم كما شرحنا قبلاً) وأن القرآن مهيمن على تلك الكتب كلها، ولكنه حجبها وجبها لا عند اليهود والنصارى بل عند العرب، والعرب لم تكن تلك الكتب قبل البعثة المحمدية ذات بال لديهم، حتى المتنصرون(ورقة بن نوفل ورفاقه) لم ينشروها في المجتمع المكي، ولهذا نقول إن

١-الواضح أمامنا أن إثبات النبوة لأولاد إسحاق أكثر منها لأولاد إسماعيل ، فلم يشر القرآن إلا لإسحاق بوصفه وريث النبوة عن أبيه ، حيث قال تعالى:" فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا"(مريم :٤٩) وكذا :" وَنَجَّيْنَاهُ ولُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ"(الأنبياء:٧١/٧٢) ولَم تَأت الإشارة إلى إسماعيل مطلقاً إلا أنه نبي وحده وجاء مذكورا في سلسلة النسب في أكثر من موضع وأشير إليه وحده بالنبوة(البقرة:١٣٦/١٣٣/١٢٧، ١٤٠/١٣٦، آل عمران:٨٤، النساء:١٦٣، الأنعام:٨٦، إبراهيم:٣٩، مريم:٥٤، الأنبياء:٨٥، ص:٤٨) أما إسحاق فكانت الإشارة إليه دوما تحمل ذريته من ورائه انظر(وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ "(هود:٧١) وتَمّ تخطي إسماعيل في سورة (يوسف:٦/٣٨) ويقول بشكل صريح في سورة الصافات:" وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ "(الصافات:١١٢/١١٣) ولم تأتي الإشارة إلى ذرية إسماعيل مطلقاً ، بل التركيز القرآني كله على ذرية إسحاق ولا مراء في ذلك أبدا ، انظر(البقرة:١٣٣/١٣٦/١٤٠، آل عمران: ٨٤،النساء:١٦٣،الأنعام :٨٤، هود:٧١، يوسف:٦/٣٨، إبراهيم:٣٩، مريم:٤٩،الأنبياء:٧٢، العنكبوت:٢٧، الصافات:١١٢/١١٣،ص:٤٥)

دعاوى المحلية كثيرة، والقرآن يثبت أن الدعوة للعرب، وإن العرب بعد ذلك أخذوا في فتح الأمصار؛ لأنه لم يعد يصلح أن يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام من قتال بعضهم البعض، فصاروا أمة واحدة يحاربون سواهم، باسم الدين الذي ظهر في أرضهم، وقد بدأت بعد وفاة محمد (ص) فتوحات المسلمين المتصلة وتحققت دعائم الدولة الإسلامية، كما نشاهدها أمامنا الآن، ولم تستخدم الفتوحات في البداية أساساً لنشر الإسلام، بل لإرساء سيادة الدولة الإسلامية في المناطق الخاضعة، وكانت هذه الدولة مطابقة للأمة الإسلامية، حيث تطلق السيادة على الإقليم ولكن هذا لا يقوم مقام المساحة المتواضعة، ففي الإقليم نفسه تعيش جماعات إثنية، ففي ظل الدولة الإسلامية عاشت الجماعة اليهودية والكنائس والنصرانية والمجوس والصابئة. (وما يفهم منها)

وفي القرن الحادي عشر تبني الماوردي علاقات الدولة الإسلامية ببيئته على أساس القواعد المأخوذة حقيقة أو زيفاً عن النبي مع العناية بالتطبيق المتطور خلال القرون الأربعة في نظام واحد والذي يُعدُّ حالياً في الدوائر المحافظة والأصولية مناسباً تماماً.

وقد قسّم العالم قسمين هما: دار السلام فيما يمثل السلام الذروة، ودار الحرب أي ما يوجد خارج السيادة الإسلامية، وبهذا التقسيم للعالم تجد الأمة الإسلامية في حالة حرب دائمة من الناحية النظرية.وطبقا لنموذج " الرسول" فقد عقد مع أهل مكة صلح الحديبية، أي أنه يمكن وفقا للمنظور الإسلامي أن توقف الحرب بين آونة وأخرى. على سبيل المثال عندما يكون العدو قوياً والقوات الإسلامية غير كافية، في حين يلتزم المسلمون باستئناف الحرب، عندما تسمح الظروف بذلك، ويجب أن يسبق الدعوة للحرب ضد الكفار طلب الدخول في الإسلام، وقد تبني الماوردي مقولة : " إن الإسلام أصبح معروفاً في العالم آنذاك بما فيه الكفاية، ولذلك فإن الدعوة ليست ضرورية، ولذلك يجب على المسلمين في كل مكان وفي أي وقت القيام بالحرب ضد الكفار، من دون أن تكون هناك دعوة الكفار قبل ذلك رسمياً، لاعتناق الإسلام أو الخضوع له. وهل كانت الجيوش التي تقف على أعتاب البلاد المفتوحة إلا غازية وراغبة في القتال؟ لقد أرسل أبو بكر الجيوش لتحارب لا لتنداح في جموع الناس تدعو إلى الإسلام، ومتى كان يمكن نشر الإسلام في بلاد الفرس الذين يتحدثون الفارسية لا العربية،([1]) وكان العرب الذين يعرفون اللغات الأجنبية قليلين جدا، فلم يكن من المسموح ترجمة معاني القرآن في فترة وجيزة، وقد نهكت الحروب العرب ولابد أن يجدوا في الانضمام إلى الإسلام مأرباً، فبعد أن تخلصت الخلافة من المرتدين ومدعي النبوة ومانعي الزكاة، من أين تقوم الخلافة بتدبير الاقتصاد

١-يقول الإمام محمد عبده في ذلك الصدد:" كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها يلجون على الناس ببوتهم ، ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم العلية وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ، ولم يعهد في تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره، ويقفون مساعيهم على بث عقائدهم بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً واحساناً عندما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفاً." رسالة التوحيد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ،٢٠٠٩، صـ ١٥٨.

اللازم لهؤلاء؟ فلابد إذن من إعلان دار حرب ودار سلام؛ للحصول على مغانم، وفي سفر سابق(تأملات) أكدنا على أن أغلب الخارجين في الحروب لا يهتمون بالعقيدة مباشرة قدر الاهتمام بالغنائم المتوقعة، وقد حدث في أثناء الحروب الصليبية على الأراضي الشامية أن كان أغلب الجنود مرتزقة لا عقيدة لهم في الحرب إلا الغنيمة، ولهذا قال البابا : " إن بلاد الشرق تفيض لبناً وعسلاً".

ويقف المسلمون من هذا الطرح موقفاً عنيداً، ويؤكدون أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وأنا لا أدعي أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وإنما الحكم للدولة الإسلامية هو الذي انتشر بالسيف، أما الدين الإسلامي فانتشر بالرحمة.([1])

ولم يعد في بلاد الإسلام أي عبادة للوثنية، وكما هو معروف فإنه لم يبق أمام الوثنيين أي اختيار آخر سوى اعتناق الإسلام أو الموت. وعلى العكس من ذلك فقد كان أهل الكتاب أحرارًا تماماً في ممارسة عقيدتهم.

وحدثت الفتوحات في البدايات لأقاليم نصرانية زرادشتية كاملة، لكنها لم تكن أعلنت التبشير، ونشأ الإسلام بين العرب، واحتفظ طويلاً بالسمة العربية (طوال الدولة الأموية)، ولما وصل الأمويون للسلطة أسسوا في الجوهر دولة عربية، وساد الدولة طبقة واهية من المسلمين العرب، وعاشوا على غنائم الحرب والضرائب التي جمعت من أهل الكتاب الخاضعين وتفرغوا فقط لقيادة الحرب. وكان العمل بالتجارة والزراعة محرماً عليهم دائماً، وأقاموا منعزلين عن السكان الأصليين في مدن معسكرات شيدت بالقرب من المراكز القديمة مثل الكوفة والبصرة والفسطاط، وتعد الأخيرة حالياً جزءاً من مدينة القاهرة. (وللأسف لم يتفرغوا للعلم :اللغة، الفقه ، التفسير، التاريخ ،هناك آحاد منهم نبغوا في كل ذلك قطعاً، لكنه لم يكن شعار الدولة)

فالإسلام كان مرتبطاً بالعروبة؛ لأنه اشترط على الداخل في دين الفاتحين أن يتبع عشيرة عربية كمولى (الجمع موالي) والمعتنق للمسيحية يجب أن يتبناه عربي ومن الطبيعي أن هؤلاء الفاتحين لم

١ـالناظر للدعوة المحمدية طوال ٢٣ سنة ، منها ١٣ في مكة ، والباقي في المدينة يجد أن محمدا(ص) كان ضعيفاً في الطور المكي، ولم يستطع مواجهة قريش كلها مرة واحدة بقوة يعتمد عليها، وقد فرَّ المسلمون الأوائل مرتين إلى الحبشة للاحتماء من البطش بهم ، لما لم يكن لديهم في قريش من يحميهم من العدوان عليهم، ثم اضطر الرسول للبحث عن ملاذ آمن، فكانت الهجرة إلى يثرب، وتكوين مجتمع جديد بها ينبذ خلافاته القديمة ويركز في الخلافات المستحدثة، من قتال لقريش لم يكن يحدث من قبل، وقتال لليهود بشكل مباشر وانتصار عليهم لم يكن يتم حسمه من قبل، والشاهد في هذا أنه في المرحلة المكية آمن أغلب المكيون (المهاجرون) والذين آمنوا بعد ذلك بفضل الحرب وتحت قهر السيف(أبو سفيان عند فتح مكة نموذجا) عدد قليل ، هم الطلقاء وكانت لفظة الطلقاء سُبة ، استخدمها علي بن أبي طالب في مراسلاته مع معاوية ، فمن آمن وهو ضعيف يخفي إيمانه كثيرون، ومن آمن بعد نشوب الحروب قليل ، ومن لم يؤمن في المدينة في مرحلة الدعة لم يؤمن بعد نشوب الحروب وتكوّن منهم فريق المنافقين وهم أكثر ذكرا في القرآن المدني فقط ، وأغلب المنافقين كانوا أصحاب سيادة على يثرب قبل مقدم النبي ، فلم يصيروا شيئاً بعد مقدمه فلم تؤمن قلوبهم له بسبب العنصر السياسي المسلوب منهم (عبد الله بن أبي بن سلول نموذجاً) (وأراد النبي أن يثبت للقرشيين أن الإسلام يفيدهم ولا ينقصهم، وذلك عندما أجزل لهم العطاء من غنائم معركة حنين ،وقد رأى الأنصار في ذلك ،ولكنه واساهم بعودته معهم لا مع المكيين)

من كل ذلك أقول: إن العرب أصحاب الجيوش لم يعلوا على نشر الإسلام (عمر لم يطلب من عمرو بن العاص نشره في مصر أو في الشام) وإنما انتشر الإسلام بعد ذلك بعشرات السنين بالمخالطة والدخول في اللغة ومعرفة الدين الصحيح والاطلاع على أنه يُخاطب الفطرة السليمة ويُلبي حاجات كثيرة للنفس الإنسانية المستقيمة.

يستمروا طويلاً كذلك، فلما صار عدد الموالي كافياً، صاروا في وضع مكنهم من أن يظفروا بمطلبهم بحقوق المواطنة الكاملة، وتحت حكم العباسيين الذين نقلوا مركز الدولة من سوريا إلى بلاد النهرين وأسسوا بغداد عاصمة لهم، تطور الدين الإسلامي إلى دين عالمي بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وذلك بالوصول إلى المناطق المفتوحة والدفاع عنها.

obeikandl.com